المـأساة الفلسطينية

لباحث دبلوماسي كبير

أجل لم تعد قضية فلسطين مسألة من مسائل الاستعمار والسياسة ، ولكنها تغدو مأساة حقيقية

مضت إلى اليوم عدة أسابيع ، وفلسطين تجوز أحداثاً هائلة : أهوال الاضراب والمقاومة السلبية ، وأهوال القوة الغاشمة تميل عليها وتنكل بها من كل صوب ، وتحاول اخماد أصواتها وأنفاسها بكل وسيلة ، وتعمل على تجريدها من كل وسائل الاعراب والمقاومة ؛ والسياسة التجنية تشهد آلام شعب بأسره هادئة جامدة ، لا تحركها صرخات الألم ، ولا ازهاق الأنفس واهراق الدماء ، بل تؤكد هادئة أنها لن تحاول بديلا لخطتها ، وأنها ستمضي فيها إلى النهاية غير مكترثة بارادة شعب وحقوقه ، بل بحياته أو موته

والواقع أن فلسطين اليوم تجوز صراع الحياة والموت ؛ وهي تجوز هذا الصراع منذ تسعة عشر عاماً ، أعني مذ قضت عليها السياسة الانكليزية في سنة ١٩١٧ ، بأن تغدو وطناً قومياً لليهودية ؛ ولكن خطر الصهيونية على كيان فلسطين لم يبدُ في أعوامه الأولى كما يبدو اليوم ؛ وكانت الأمة الفلسطينية ما زالت في هذه الأعوام الأولى تهجس بشيء من الأمل ، أما اليوم فان الخطر الصهيوني يبدو في ذروة روعته ، خطر فناء لا شك فيه ؛ وتفقد الأمة الفلسطينية كل أمل في عدالة الاستعمار والعدالة الدولية ، وتدفعها اليوم إلى الكفاح نزعة يأس عميق ؛ وإذا بلغت الأمم حد اليأس ، هانت عليها كل سبل الاقدام والتضحية

وهذا ما يطبع كفاح الأمة الفلسطينية اليوم ، فانها تجوز غمار هذه الأحداث الهائلة التي نشهدها منذ أسابيع ، مقدمة غير مكترثة لبذل النفس والمال ، ومتار على الكفاح بهمة الجلد المستميت

* * *

أسفرت الحرب الكبرى عن وقوع فلسطين تحت نير استعمار مزدوج ، فقد فرض عليها الانتداب البريطاني باسم عصبة الأمم ، والانتداب هو حماية أجنبية صريحة ؛ وقضت عليها السياسة البريطانية من جهة أخرى أن تكون وطناً قومياً لليهود ، وأدمج هذا العهد الذي قطعته انجلترا لليهودية في نص الانتداب الذي أقرته عصبة الأمم ، وغدت فلسطين بذلك أرضاً بريطانية كما غدت ميداناً للاستعمار اليهودي الاقتصادي والاجتماعي

ومنذ سنة ١٩١٧ يتدفق سيل الهجرة اليهودية على فلسطين ، بدعمها تدفق الأموال اليهودية ، والنشاط اليهودي بسائر ألوانه ومناحيه ؛ ولا تدخر السياسة البريطانية من جانبها وسعاً لرعاية هذا الوطن اليهودي الجديد ، وتشجيع نمائه ورخائه ، وتذليل كل صعب في سبيل الهجرة اليهودية ، وتنظيم الاستعمار اليهودي للبلاد ؛ وتفسح السلطة المنتدبة في ذلك مجالاً كبيراً لآراء الوكالة التنفيذية اليهودية ، وهي الهيئة اليهودية الرسمية التي تقوم في فلسطين بجانب سلطات الانتداب طبقاً لصك الانتداب ذاته ، وتتمتع بحق الاقتراح والمشورة في كل ما يتعلق بالوطن القومي اليهودي

ومع أن اليهودية أقبلت من سائر أنحاء العالم على استعمار فلسطين بحماسة شديدة ، وحملت إليها مئات الملايين ، واشترت من أراضيها مساحات عظيمة ، حولتها إلى مستعمرات يهودية غنية ضخمة ، وانشأت مدينة يهودية عظيمة هي مدينة تل أبيب ، وعملت على إحياء اللغة العبرية وجعلها لغة الوطن القومي الجديد ، وانشأت جامعة عبرية كبيرة لتعمل على احياء التفكير اليهودي ؛ مع ذلك كله كانت اليهودية في أعوامها الأولى تسير الى غايتها متعثرة ، ويزعجها سخط العرب وتبرمهم ؛ وكانت تخشى دائماً أن تميل السياسة البريطانية الى ارضاء الأماني القومية العربية بوجه من الوجوه ، خصوصاً وأن تصريح بلفور ذاته ينص على احترام حقوق الطوائف غير اليهودية ، المدنية والدينية ؛ بل لقد مر باليهودية قبل بضعة أعوام فقط ساعات يأس حقيق ، وخيل لها غير مرة ، أن حلم هرتسل[1] في بعث الدولة اليهودية

(١) تيودور هرتسل الكاتب والصحفي النمسوي (١٨٦٠ — ١٩٠٤) ، وقد كان روح الحركة الصهيونية الحديثة ، وأعظم زعمائها ومنظميها

وإنشاء الوطن القومى اليهودى ، سينهار فى مهده ؛ وكادت الحكومة البريطانية فى سنة ١٩٣٠ بعد أن تبينت عدالة المطالب العربية فيما يتعلق بوقف الهجرة اليهودية ، ووقف بيع أراضى العرب ، وهى مطالب عززها تقرير اللجنة الانكليزية التى انتدبت لبحث هذه المسائل ، تجنح الى إرضاء بعض الأمانى العربية ، وصدرت فى مجلس العموم البريطانى تصريحات رسمية فى هذا الشأن ؛ ولكن سرعان ما تغلب نفوذ اليهودية مرة أخرى ، وسحبت الحكومة البريطانية تصريحاتها ووعودها للعرب ، بتصريحات معارضة ألقتها تأييداً لوجهة النظر اليهودية وعهد بلفور

وهكذا استطاعت اليهودية أن تخرج ظافرة من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى كادت تزعزع ايمانها فى حلمها وفى مثلها ؛ وذهبت جهود العرب سدى ، ولم يظفروا رغم ثوراتهم واحتجاجاتهم المتكررة بحمل السياسة البريطانية على أن تحيد ذرة عن خطتها

ثم لقيت الحركة الصهيونية ظرفاً جديداً لنشاطها واضطرامها ؛ ذلك أن ألمانيا جاشت بالخصومة السامية عقب قيام النظام الهتلرى ، ونظمت الحكومة الهتلرية لسحق اليهود فى ألمانيا مطاردة عنيفة رائعة ، فتوجست اليهودية فى أنحاء العالم شراً ، وهتفت كلها باخطار الخصومة السامية ، وألفت الصهيونية الفرصة سانحة لتؤكد لأبناء جنسها كرة أخرى أن الوطن القومى اليهودى هو ملاذ اليهودية وعصمتها من تلك النزعات الخطرة ؛ وهكذا تدفق سيل الهجرة اليهودية على فلسطين بعنف لم تعهده من قبل ، وزاد عدد اليهود فى فلسطين بسرعة حتى أنه بلغ الضعف تقريباً فى نحو ثلاثة أعوام ؛ ولبيان ذلك نقول إن اليهود بلغوا حتى سنة ١٩٣٢ نحو ثلثمائة ألف من مجموع سكان فلسطين وقدره مليون . وقد بلغوا فى سنة ١٩٣٦ حسب آخر إحصاء نحو خمسمائة ألف ، وبلغ السكان العرب من مسلمين ونصارى نحو سبعمائة وخمسين ألفاً ؛ وقد اجتمعت مرافق فلسطين الحيوية فى الأعوام الأخيرة فى يد اليهودية بسرعة ، وأحرزت اليهودية بالشراء السخى معظم أراضى فلسطين الخصبة ، وساعدتها السلطة المنتدبة على تحقيق سيطرتها الاقتصادية بجميع الوسائل التشريعية والادارية ، وما زالت هذه السيطرة تزداد توطدا وتمكيناً

* * *

والآن وقد رأى العرب أن بلادهم التى استوطنوها منذ الأحقاب ، وأراضيهم ومرافقهم الحيوية ، وتراثهم الدينى والاجتماعى ، كل ذلك يسير سراعا إلى التلاشى والعدم ، والدولة المنتدبة تؤازر اليهودية باستمرار على تمكين غزوها المروع ؛ وخطر الفناء القومى يلوح فى ثنية المستقبل ، فهل نعجب إذا رأيناهم ينفجرون سخطا ويؤثرون السقوط فى ميدان الجهاد الشريف على ذلك الاعدام البطىء المنظم ؟ وهل تعجب الحكومة البريطانية إذا كانت سياستها فى فلسطين قد أدت إلى مثل هذا الانفجار الخطير ، وهو الثالث من نوعه فى نحو عشرة أعوام ؟

إن مؤازرة السياسة البريطانية لليهودية وتعضيدها لانشاء الوطن القومى يرجعان إلى اعتبارات واضحة معروفة ؛ فالسياسة البريطانية تعرف مدى النفوذ اليهودى فى عالم المال والسياسة ، وقد حظيت بريطانيا فى الحرب العظمى بمؤازرة اليهودية ، ومازالت ترمى إلى الاحتفاظ بهذه المؤازرة ؛ وإنشاء الوطن القومى ضمان لاستمرار هذا التعاون بين السياسة البريطانية وبين اليهودية . بيد أن هنالك اعتبارات أخرى يلوح لنا أن السياسة البريطانية لم تقدرها حق قدرها . ذلك أن فلسطين هى قطعة من العالم العربى تحوطها الأمم العربية من كل صوب ، والأمة الفلسطينية هى عضو فى جماعة الأمم الاسلامية الكبرى ؛ وانكلترا التى تسيطر على عشرات الملايين من المسلمين ، فى افريقية وآسيا يجب عليها أن تحسب حسابا لعواطف المسلمين ومشاعرهم ؛ ومن المحقق أن العالم الاسلامى كله يعطف على فلسطين فى محنتها وكفاحها كل العطف ، ويأخذ على السياسة البريطانية مسلكها نحو فلسطين وأمانيها المشروعة ، ومن المحقق أن إصرارها على هذا المسلك سيكون له أسوأ الأثر فى العالم الاسلامى ، وفى عواطف الشعوب الاسلامية نحو انكلترا

وعلى اليهودية ذاتها أن تفطن لهذا الاعتبار ؛ فالوطن القومى اليهودى يقوم فى قلب العالم العربى والاسلامى ، متحديا عواطف العرب والمسلمين ، وهم من حوله كالبحر الزاخر ؛ ولتعلم اليهودية أن الحوادث قلب ، وأن معايير التاريخ ليست فى يدها وأن هذا

البحر قد يطغى يوما فيغمر هذا الوطن القومى بما فيه ويصبح أثراً بعد عين

والسياسة البريطانية لا يمكن أن يفوتها مثل هذا الاعتبار الخطير الذى تنوه به الصحف البريطانية ؛ ولكن الظاهر أن عوامل أخرى تملى على السياسة البريطانية تشددها نحو بحث المسألة الفلسطينية ؛ فنحن نعرف أن السياسة البريطانية قد منيت بالفشل الذريع فى محاولتها إحباط الغزوة الايطالية للحبشة ، وأن ظفر الاستعمار الفاشستى يثير اليوم فى انكلترا مخاوف خطيرة بالنسبة لمستقبل سيادتها فى شرق افريقية ووادى النيل ، وكذلك بالنسبة لمواصلاتها الامبراطورية فى البحر الأبيض المتوسط ؛ وتخشى انكلترا أن تساهلها نحو أمانى فلسطين — وفلسطين تعتبر قاعدة حيوية فى مواصلاتها الامبراطورية — قد يحمل على نوع من الضعف والتسليم ويعرض هيبتها الاستعمارية للانتقاض . وقد رأينا المندوب السامى فى فلسطين يرد على مطالبة العرب بوقف الهجرة الصهيونية باصدار تصريح جديد بهجرة أربعة آلاف وخمسمائة عائلة يهودية ، متجاهلاً بذلك أن طغيان الهجرة من أهم أسباب الثورة القائمة . هذا إلى أن نفوذ اليهودية فى انكلترا يعمل عمله ؛ وقد رأينا زعيم الصهيونية الدكتور ويزمان يسارع بالعودة من فلسطين إلى انكلترا منذ بدء الثورة الفلسطينية ؛ وقد كان لمساعى هذا الزعيم دائما أثرها فى موقف السياسة البريطانية نحو فلسطين ونحو رعاية الوطن القومى اليهودى

على أن السياسة البريطانية لا يمكن أن تحتفظ طويلاً بهذا الموقف الشاذ ؛ ففلسطين تقف اليوم موقف الحسم ، وتصر على أن تبحث مطالبها وأمانيها بعين الانصاف ، ومن ورائها عطف الأمم العربية والاسلامية كلها ؛ وانكلترا تقدر بلا ريب مدى هذا العطف وآثاره ؛ وبحث القضية الفلسطينية بروح الانصاف لا يمكن أن يعتبر ضعفاً أو تسليما كما يريد أن يفسره غلاة الاستعمار ؛ أما الأصرار على تمكين اليهودية من أعناق فلسطين ، ودفع الشعب الفلسطينى إلى منحدر التلاشى والفناء ، والاكتفاء بارسال لجان التحقيق فسياسة خطرة ؛ ولا ريب أنها تعرض مركز انكلترا فى الشرق الأدنى ، وفى العالم الاسلامى كله لأشد الأخطار

* * *

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الحصانة واليهودى الأفاق

— ١ —

ما أغرب هذا العلم علمَ المكروبات ، وما أعجب ما كان من أمره فى يوم وُلِد !

بدأ هذا العلمَ رجلٌ قمّاش لم يُثقف ثقافة مذكورة ، ومع ذلك كان أول راءٍ رأى المكروبات ، ثم جاء كيميائى فأوجد للمكروبات مكانة ذات بال فى خريطة الوجود ، وأرعب الناس منها وأرعد . ثم تلاه طبيب قروى ، فجعل من صيادة المكروب شيئاً منظماً قارب أن يكون علماً صحيحاً . وأراد فرنسى وألمانى أن ينجوا بالأطفال من سم مكروب من أقتل المكروبات ، فجزرا فى سبيل ذلك أعدادا لا تحصى من الخنازير الغينية ومن الأرانب لو تراكمت لبلغت أكواماً كالجبال . إن تاريخ صيد المكروب تاريخ ملىء بالخاطرات الجميلة ، والايحاءات النادرة ؛ ولكن به كذلك كثير من الغباوات الدهشة ، والمتناقضات المجنونة . ولا يختلف تاريخ علم المكروب فى هذا عن تاريخ علم الحصانة immunity وهو العلم الذى لا يزال ناشئاً ، وبه تتفسر لنا مناعة الانسان من المكروب ، فالذى بدأ هذا العلم ، على نحو ما ، هو رجلٌ باحث كثير الاهتياج ، قليل الاتزان ، ذو جنّة تعاوده كثيراً

وكان هذا الرجل يهودياً يدعى إيلى متشينيكوف Elie Metchnikoff ، ولد فى جنوب روسيا عام ١٨٤٥ ، وقبل أن يبلغ العشرين قال لنفسه : « إنى ذو غيرة وذو مقدرة ، وقد حبتنى الطبيعة مواهب راجحة ، وأنا أطمح أن أكون بحاثاً كبيراً »

وذهب هذا الشاب إلى جامعة خركوف Kharkoff ، واستعار من بعض أساتذته مجهراً ، وكانت المجاهر عندئذ نادرة ، وأخذ ينظر فيها نظرات لم تكن دائماً بينة واضحة ، ومع هذا قام على